

ذوو الأصوات الناعمة الجذابة

Those with the Soft and Attractive Voices

ترجمة ب. حسيب شحادة

جامعة هلسنكي

في ما يلي ترجمة عربية لهذه القصة، التي رواها راضي بن الأمين بن صالح صدقة الصباحي (رتسون بن بنيميم بن شلح تسدكه هصفري، ١٩٢٢-١٩٩٠). أبرز حكيماً في الطائفة السامرية في القرن العشرين، محيي الثقافة والأدب السامري الحديث، متقن لتلاوة التوراة، متمكن من العبرية الحديثة، العربية، العبرية القديمة والآرامية السامرية، جامع لتقاليد قديمة، مرتل، شيخ صلاة (זקן תפלה/סלוחה)، شمّاس، قاصّ بارع، أديب أصدر قرابة الثلاثين كتاباً، وهي بمثابة مصدر لكتّاب ونسّاح معاصرين، شاعر نظم حوالي ٨٠٠ قصيدة وأنشودة (שירים ושיירות)، وباحثون كثيرون تعلّموا منه عن التقليد الإسرائيلي السامري. كان السامري الوحيد الذي سمّاه سيّد الباحثين في الدراسات السامرية المعاصرة، زئيف بن حاييم باسم (١٩٠٧-٢٠١٣): معلّم ومرشدي (מורה ודור) بالعبرية على مسامع ابنه الأمين (بنياميم) صدقة (١٩٤٤-)، الذي بدوره نقّحها، اعتنى بأسلوبها ونشرها في الدورية السامرية أ.ب. أخبار السامرة، عدد ١٢٤٢-١٢٤٣، ١٦ تموز ٢٠١٧، ص. ٧٣-٧٥. هذه الدورية التي تصدر مرتين شهرياً في مدينة حولون جنوبي تل أبيب، فريدة من نوعها - إنّها تستعمل أربع لغات بأربعة خطوط أو أربع أبجديات: العبرية أو الآرامية السامرية بالخطّ العبري القديم، المعروف اليوم بالحروف السامرية؛ العبرية الحديثة بالخطّ المربع/الأشوري، أي الخطّ العبري الحالي؛ العربية بالرسم العربي؛ الإنجليزية (أحياناً لغات أخرى مثل الفرنسية والألمانية والإسبانية والبرتغالية) بالخطّ اللاتيني.

بدأت هذه الدورية السامرية في الصدور منذ أواخر العام ١٩٦٩، وما زالت تصدر بانتظام، توزّع مجاناً على كلّ بيت سامري في نابلس وحولون، قرابة الثمانمائة سامري، وهناك مشتركون فيها من الباحثين والمهتمين في الدراسات السامرية، في شتّى أرجاء العالم. هذه الدورية ما زالت حيّة تُرزق، لا بل وتتطور بفضل إخلاص ومثابرة المحرّرين، الشقيقتين، الأمين وحسني (بنياميم ويفت)، نجلي المرحوم راضي (رتسون) صدقة (٢٢ شباط ١٩٢٢-٢٠ كانون الثاني ١٩٩٠).

”قراءة التوراة على شرف الميت

عندما يتوفى شخص منّا يجتمع كلّ أبناء الطائفة خلف رأسه ويقروون توراة موسى برمّتها. وفي الجيلين الأخيرين تبنت الطائفة نهجاً جديداً وهو قراءة التوراة بأكملها بعد صلاة صباح السبت التالي للوفاة أيضاً. لا تسلني في ما إذا كنت راضياً عن طريقة تلاوة التوراة على ذكرى الميت اليوم. اليوم لا يقروون كما قرأوا في الماضي. اليوم يقروون بسرعة كأنّ شخصاً ما يطاردهم (كأنه واحد لاحقن بعصاي). ولكن ذات مرّة في الماضي، قرؤوا بشكل مغاير. اليوم يقروون سفر التكوين (السفر الأوّل) وأحياناً ليس كلّه ويقسمون بقية التوراة على عدد من القراء، وكل واحد يتلو قطعه في الوقت ذاته سوية. ما أن يجلس الحضور للقراءة وإذا بها تأتي إلى تمامها، كأنّ عبثاً على كاهلنا ينبغي تفرّغه دون تأخير. لا أحد يتحمّس للموت إطلاقاً، ولكن يجب توقير الميت.

في عهد الكاهن الأكبر توفيق بن خضر (متسليح بن فنحاس، ١٨٦٩-١٩٤٣) كان الوضع كلّه مختلفاً. أولاً وقبل كلّ شيء، جميع أبناء الطائفة قدّروه ووجّلوه. كان من المفروض أن يراه المرء مرّة وهو يمشي في الشارع، نازلاً من الحيّ العتيق لسوق نابلس، لكي يدرك مرّة واحدة وللأبد، ما معنى فكرة/مصطلح الهيبة والكرامة. لم أنو أن أحكي لك عن هذا، فهو يخصّ حكاية أخرى. ما وددت سرده هو أن جزءاً من التقدير الذي كنهه الآخرون للكاهن الأكبر توفيق، كان نابعاً من الحقيقة بأنّ أشقائه الثلاثة، إبراهيم وناجي (أبيشع) وغزال (طاقياً) احتراموه ونفّذوا كل ما كان يطلبه أخوهم الأكبر على أكمل وجه. كما قدّره بنفس القدر الكاهن أبو الحسن (أف حسده) بن يعقوب والكاهنان الشقيقان الشابان عمران وصدقة (عمرم وتسدكه). وإذا أخذنا بعين الاعتبار الحقيقة بأنّ كل الأسماء التي ذكرتها، قد كوّنّت عائلة الكهنة آنذاك، أدركت المكانة التي تبوّأها الكاهن توفيق لدى طائفته.

موت عبد الله بن مرجان (عبد-إيله بن أب سكوّه) الدنفي

عندما توفي المسنّ عبد الله بن مرجان الدنفي رئيس عائلة الدنفيه عام ١٩٣٧ تجمّع خلف رأسه جميع أفراد الطائفة. كم كان عدداً حينئذٍ؟ ربّما حوالي ٢٤٠ نسمة سامرية في كافّة أصقاع المعمور. بالطبع، لم يخطر لأحد منّا أن يستهلّ بالقراءة قبل إقبال الكاهن الأكبر توفيق.

الكاهن الأكبر توفيق قدّ احترام المرحوم الشيخ عبد الله بن مرجان جدّاً، لأنّه كان رجل علم وثقافة ونسخ الكثير من الكتب. أونتها كنت ابن خمسة عشر ربيعاً فقط، ولكنني عرفت عندها، كالأخريين الكثيرين، بأنّ موت الشيخ اعتبر خسارة جسيمة بالنسبة للسامريين.

وصل الكاهن الأكبر توفيق بيت المتوفّي بعد أن أنهى صلاة المساء في منزله. من كان يفكّر ألاّ يصلّي كل صباح ومساءً؟ وبعد دخوله البيت جاء الكهنة ووقف كل الحضور إلى أن جلس الكاهن الأكبر في مكانه. فتح الجميع التوروات التي بأيديهم للشروع بالقراءة، إلاّ أنّ الكاهن الأكبر فكّر بشيء آخر. رفع كفّ يده اليمنى ولتوّخيم الهدوء على جميع أركان الغرفة الرحبة.

رمقنا جميعاً بنظرة صارمة فأحنينا رؤوسنا بخجل شديد وخزي، لم ينبس أحد ببنت شفة. عندها أشار الكاهن توفيق بإصبع نحو الكهنة قائلاً: أنت يا أبا الحسن تقرأ سفر التكوين، وأنت يا إبراهيم تقرأ سفر الخروج وأنا أقرأ سفر اللاويين وأنت يا ناجي تقرأ سفر العدد والكاهن صدقة بن إسحق يقرأ سفر تثنية الاشتراع، لقد فقدنا اليوم رجلاً جليلاً، والكلّ مطالب بالإصغاء للقراءة جيّداً.

لا أحد فكّر في غير ذلك. نعم يا حبيبي، جلسنا طوال الليلة في مرمى عيني الكاهن الأكبر توفيق الثاقبتين. لكن صدّقني لم نشعر بالضجر والملل ولو للحظة واحدة. قرأ الكهنة التوراة الواحد تلو الآخر. وعندما انتهى الكاهن أبو الحسن من قراءة سفر التكوين، بدأ الكاهن إبراهيم بتلاوة سفر الخروج. لو لم يكن الميت مسجياً أمام أعيننا لكان من الممكن قطعاً القول إن الاستماع لتلاوة الكهنة كان من ألدّ وأعظم المتع في حياتي.

صوت رخيم متسلسل

استهلّ الكاهن أبو الحسن بصوته الرخيم والعذب جدّاً، سُمعت كلّ كلمة. وعند وصوله لقصص يوسف أجهشنا بالبكاء. ثم تلاه الكاهن إبراهيم فتلا سفر الخروج ويا لها من تلاوة، إنّها تنغيم بصوته الثريّ لحدّ بعيد، الجمهوري والقويّ، فلامس شغاف قلوبنا جميعاً. بعده قرأ الكاهن الأكبر سفر اللاويين الذي لا أحد منّا يرغب في تلاوته. ولكن عندما يقرأه الكاهن توفيق يصبح هذا السفر المملّ أكثر الأسفار إمتاعاً. ثم قرأ شقيقه الكاهن ناجي بتمهلّ سفر

العدد وختم القراءة بسفر التثنية الكاهن الشاب صدقة بصوت أمر صارم كلّه سيطرة، ومنذ ذلك الحين قد عُرف بذلك.

انتهت القراءة قبيل الصباح ونحن لم نشعر كيف مرّت الساعات الواحدة تلو أختها. ربّما ساهم في ذلك أكثر من الآخرين الكاهن إبراهيم بن خضر بقراءته الرائعة جدًّا التي بها بدّد قسمًا كبيرًا من الحزن والأسى على موت عبد الله الدنفي، لدرجة أنّ الجميع سار في موكب الجنازة بشعور أخفّ من الأسى والحزن. هذا مثال على ما بوسع قراءة الكاهن إبراهيم للتوراة أن تفعل. هكذا حصل في أوقات الحزن والجِدَاد حول رأس المتوفى، أباستطاعتك أن تتخيّل إنشاد وتنغيم الكاهن إبراهيم في مناسبات الفرح؟ في أيام العيد؟ رحمه الله وظل على روحه الطاهرة“.